الوظيفة النّطقيَّة والاجتماعيَّة للمرفوعات في العربيَّة

للدكتورة: سعاد بسناسي
جامعة وهران السَّانية
besnacisouad@hotmail.fr

الملخَّص:

إنَّ الصَّوت اللّغـويّ لا يتحقَّـق إلَّا بوجـود الصَّـامت والصَّـائت، اللَّـذين يشكّلان وحدة صوتيَّة قاعديّـة؛ لـذلك كانـت العلاقـة بـين الصَّـامت والصَّـائت ضروريَّة وتلازميَّة؛ ومنه كان لصوائت العربيَّة أثرهـا في التَّشـكيلات الصَّـوتيَّة للمبـاني المورفولوجيَّـة، والتَّراكـب النَّحويَّـة، والرَّفـع مـن صـوائت الإعـراب الأصليَّة في الدِّراسات اللغويَّة؛ باعتبار ما يؤدِّيه من وظائف نطقيَّة، ومـا يعبِّـر عنه من كميّات صوتيَّة، وما له من خلفيات اجتماعيَّة.

توطئة

إنَّ حديث المورفولوجيا في مفهومه العامّ يتَّجه صوب المفـردات، وهـي أنواع أساسها الحدثيَّة والذَّاتيَّة. وينقسم كلٌّ منهما إلى مفـردة ومركَّبـة باعتبـار مكوِّناته. ودلالة الحدثيَّات المورفولوجيَّة تكمـن في مكوِّناتهـا الوسـطى المسـمَّاة حركة العين، وهو ما يُراعى في الدَّرجة الأولى؛ أمَّـا العناصـر الأخـرى كالزِّيـادة والنُّقصان وبقيَّـة التَّلوينـات الصَّـوتيَّة والـتَّغيرات الموقعيَّـة لمكوِّنـات الصِّـيغة، فتأتي في الدَّرجة الثَّانية.

وإن كُنَّا نُركِّز في دراسة التحوُّلات المورفولوجيَّة علـى مختلـف موقعيّـات الصَّوائت؛ فإنَّنا نحلِّل موقعيَّـة النِّهايـة في التَّراكيـب، لرصـد التّحـوُّلات الطَّارئـة عليها، المسمَّاة علامة إعرابيَّة ومنها الرَّفع. وقبل التَّحليل والتَّعليـل والتَّمثيـل لصائت الرّفع؛ هذه وقفة مع مفاهيم المصطلحات الأساسيَّة التي نتعامل معهـا وهي الضمُّ والضمَّة وفي مقابلها: الرَّفع والرَّفعة والرِّفعة.

مع المفاهيم والمصطلحات

إنَّ الحركة في مفهومها العامّ، هي التَّحوُّل والتَّغيير والانتقال عبر الزَّمان أو المكان أو هما معاً. وفي اصطلاح اللّغويّين هي الصُّورة الصَّوتيَّة التي يكون عليها الصَّامت أثناء النطق به، وتسمَّى الكسرة أو الضمَّة أو الفتحة، كما تسمَّى علامة البناء في مجال تحديد الوظيفة النَّحويَّة الإعرابيَّة لها. وبالنَّظر إلى كمِّيتها سمَّاها الدَّارسون الصَّائت القصير والحركة القصيرة"[1]" ويسمِّيها (ديزيرة سقال) الأشكال، وهي العلامات من حركات وسكون وتنوين. فالحركات (وهي الأصوات القصيرة، ويقال لها صوائت)؛ أي الضمَّة والكسرة والفتحة، والسّكون وهو غياب الحركة، والتَّنوين، وهو مضاعفة الحركات الثَّلاث.

وأنَّ للضمّ في أصل مصطلحه الصَّوتي بعدين، واحد فيزيولوجيّ عضويّ، وآخر فيزيائيّ نفَسيّ، وقد استعاره علماء النَّحو من مجال الأصوات اللّغويَّة، ووظَّفوه في مجالهم بعد أن فصلوه عن مستواه، وجرَّدوه من وظيفته، وأصبح الرَّفع مجرَّد نطق غير دالٍّ، وذلك حين يقال في الفاعل إنَّه مرفوع؛ ولكنَّنا إذا خفضناه أو نصبناه أو جزمناه، فإنَّ ذلك لا يغيِّر من معناه ووظيفته. وحين نقول: (جاء محمَّدٌ أو محمَّدًا أو محمَّدٍ) برفع المسند إليه أو نصبه أو كسره، فإنَّ المعنى واحد لا يتغيَّر، وهو حصول المجيء.

ويصف علماء الأصوات المحدثون، الصَّوائت باعتبارات ثلاثة في نطقها، أوَّلها درجة انفتاح الفم، ويكون الصَّائت مفتوحًا أو مغلقًا، وثانيها باعتبار وضعيَّة اللِّسان، ويكون الصَّائت أماميًّا أو خلفيًّا، وثالث الاعتبارات هي حركة الشَّفتين، ويكون الصَّائت دائريًّا أو غير دائريّ"[2]". واتَّفق الدَّارسون، على أنَّ الصَّوائت القصيرة ثلاثة، وهي الضمَّة والفتحة ثمَّ الكسرة. وتكون طويلة كما عرَّفها (ابن جني) بقوله: (اعلم أنَّ بعض الحركات أبعاض حروف المدِّ واللين، وهي الألف والياء والواو، وكما أنَّ هذه الحروف ثلاثة فكذلك الحركات ثلاث، وهي الفتحة والكسرة والضمَّة، فالفتحة بعض الألف، والكسرة بعض الياء، والضمَّة بعض الواو)"[3]" وهي إشارة إلى الكميَّة الصَّوتيَّة للصَّوائت القصيرة والطَّويلة.

ومن المعاجم اللّغويَّة التي عرَّفت مصطلح الضمَّة، مقاييس اللّغة وجاء فيه أنَّ (الضَّاد والميم أصل واحد يدلُّ على ملاءمة بين شيئين)"[4]" ويضيف لسان العرب أنَّ الضمَّة من (ضمِّ الشَّيء إلى الشَّيء، وقيل قبض الشَّيء إلى الشَّيء)"[5]" ونخلص من هذا، إلى أنَّ الضمَّة مشتقَّة من الضمِّ،

وضـمُّ الصَّـوت أو الحـرف إذا حرَّكنـاه بصـائت الضـمَّة، ويكـون نطقـه بضـمٍّ الشَّفتين كما ورد في نـصٍّ (أبـي الأسـود الـدؤلي) بقولـه: (إذا رأيـتني ضـممت شفتيَّ بالحرف ضع نقطة بين يديه) "[6]" والملاحـظ، أنَّـه رغـم كثـرة التَّعـاريف اللغويَّة لمصطلح الضمَّة، فإنَّها لم تُعرِّفنا بوظيفتها اللغويَّة ولم تَسِمها بسـماتٍ دقيقة تتميَّز بها عن غيرها من الصَّوائت؛ إذ نلحظ خلطًا بين مفهوم الضمَّة والرَّفعة، وهذا توضيح الفرق بينهما ومحاولة لإزالة الالتباس فيما يأتي.

مع الرَّفع

الرَّفعة مفردة تعني في مفهومها العامّ العلوّ، وهي مشتقَّة من الصِّيغة الحدثيِّة الثلاثيَّة (رفع) بفتح الفاء وضمها، على اخـتلاف دلالـة كـلٍّ منهمـا"[7]" والرَّفع في الاستعمال، مصطلح إعرابيّ يلحق أواخـر المفـردات عنـد التَّركيـب، وكغيره من الصَّوائت يعتبر الرَّفع علامةً متغيِّرةً تلحـق الصَّـامت في التَّركيـب؛ لتبديل صوته أو صورته أو هما معا، ويـأتي مصـدرها مكسـورَ الـرَّاء، ويقـال فيها الرِّفعة؛ وممَّا جاء في دلالة هـذه الصِّـيغة أنَّ الرَّفعـة بفـتح الـرَّاء هـي ضـدّ الوضع، ونقيض الخفض في كلِّ شيء"[8]" والرِّفعة بكسرها هـي نقـيض الذِّلـة وخلاف الضِـعَة"[9]" وكـأنَّ الرَّفعـة تكـون في المادِّيـات والمعنويَّـات؛ بينمـا تكـون الرِّفعة بالكسر في المعنويات، والمصطلح الـذي يوافـق طبيعـة هـذا العمـل هـو الرَّفعة بالفتح، وتكون في مفهومها مساوية للضمَّة في المفهـوم ومتناوبـة معهـا في مجال الاستعمال، وهما معًا مفهومان لغويَّان لعلامةٍ صوتيَّةٍ واحدةٍ، وإذا كان مصـطلح الضـمِّ قـد ظهـر مـع أبـي الأسـود الـدؤلي؛ فـإنَّ الخليـل بـن أحمـد الفراهيدي من بعده نوَّع في مصطلحات الحركات الإعرابيَّة، كما عـدَّل وأصـلح شكل علامات البناء.

تنويعات الضّم عند الخليل

حينما نتتبَّع جهود الخليـل، وتعديلاتـه وإضـافاته وإصـلاحاته في مجـال الصَّوائت، نجده نـوَّع فيهـا وفي وظائفهـا، حتـى تجـاوز بهـا العشـرين مصـطلحًا وبتنويعه هذا،لم يضع أسماءً للرَّفع والنَّصب والجرِّ حسبُ، بل وضع أسـماءً كـثيرةً لأحوالِ الكلمة في وجوهها الإعرابيَّة ومـا يتبعهـا"[10]" وكـان التَّنويـع في مواقـع هذه الصَّوائت، على أساس تنويع الصِّيغ من أسماء وأفعال وأدوات.

وللضمَّة عند الخليل خمسة مواقع؛ فالرَّفع هو ما وقع في أعجاز الصِّيغ المنوَّنة، نحو (زيدٌ) والضمُّ ما وقع في أعجاز الصِّيغ غير المنوَّنة، نحو (يفعلُ)، والتَّوجيه هو الضمَّة الواقعة في صدور الصِّيغ نحو العين المضمومة من (عُمر)، والحشو ما وقع وسط الصِّيغ مثل ضمَّة صوت الجيم من (رجُل)، والنَّحر هو الضمَّة الواردة آخر الصَّيغ الاسمية غير المنوَّنة وحقُّها التَّنوين، في مثل ضمَّة اللاَّم من صيغة (الرَّجلُ)"[11]" وإنْ نوَّع الخليل في تسمية الصَّوائت، باعتبار مواقعها ونوع صيغها؛ فإنَّ من جاؤوا بعده إلى وقتنا هذا، أطلقوا مصطلح الرَّفع على كلِّ صيغة فيها ضمَّة، كيفما كان نوع هذه الصِّيغة، فعلاً أو اسمًا أو أداةً، وأينما كان موقع الضمَّة فيها، بدايةً أو وسطًا أو نهايةً.

ومن بعد الخليل، جاء سيبويه الذي عدَّد علامات البناء الأربعة، ثمَّ ذكر ما يقابلها على التَّرتيب من علامات الإعراب، بقوله: (...فالنَّصب والفتح في اللَّفظ ضرب واحد، والجرُّ والكسر فيه ضرب واحد، وكذلك الرَّفع والضمُّ، والجزم والوقف)"[12]" ولنا أن نسأل عن علَّة تسمية الرَّفع، ونتساءل عن سبب اختيار هذا المصطلح دون غيره، ونبحث عن خلفية التَّسمية عند القدماء ولاحقيهم. والملاحظ أنَّ المحدثين، خلطوا في تعاريفهم بين الضمَّة التي جعلوها علامة بناء، والرَّفع الذي اعتبروه علامة إعراب، وهذا عرض لبعض تعاريف الضمَّة والرَّفع من بعدها لتبيين أوجه الافتراق بين المصطلحين.

في الوظيفة النّطقيَّة

إنَّ الضمَّة عند اللُّغويين المحدثين من النَّاحية الفيزيولوجيَّة، صائت خلفي؛ أي أنَّ الجزء الخلفيّ من اللِّسان، يكون لدى النُّطق به أقرب ما يمكن من الحنك الليّن واللَّهاة"[13]" وفي المقابل، ينخفض الفكّ السّفليّ؛ لكي يسمح بارتداد اللَّسان إلى الخلف، ممَّا ينتج عنه ضيق فتحة الفم، وانفتاح الشَّفتين مع تقدُّمهما للأمام كعلامة للضّم.

وقد وصف بعض المحدثين الضمَّة بأنَّها صائت وسطي خلفي، وقدَّم هذه الصِّفات لصائت الضمَّة، وأخرى لصائتي الفتحة والكسرة، واعتمد صاحب النَّص في وصفة لصائت الضمَّة على الأسس الآتية: شكل الشَّفتين (الاستدارة والانبساط) عند لفظ الحركة؛ بحيث تُصنَّف الحركات إلى مستديرة ومنبسطة طبعاً لشكل الشفتين لدى اللَّفظ؛ ودرجة ارتفاع اللِّسان لدى اللَّفظ؛ بحيث يكون لدينا حركات عالية ووسطى وواطئة حسب ارتفاع اللِّسان. ودرجة انسحاب اللِّسان لدى لفظ الحركة؛ بحيث يكون لدينا حركات أماميّة

ووسطى وخلفيَّة. ووضعيَّة الفك الأسفل لدى نطق الحركة"[14]" مع أنَّه لم يصنِّف هذه الصِّفات مع صوائتها؛ أي لم يحدِّد الصِّفة المناسبة لنطق كلّ صائت؛ وممَّا يناسب صائت الضمَّة من صفات مذكورة في النَّص، هي استدارة الشَّفتين، واستعلاء مؤخَّر اللِّسان؛ و النُّصوص الآتية ستضيف صفات أخرى لصائت الضمَّة. وهناك من يرى أنَّ الحركات عديدة، وهي: "تختلف باختلاف درجة ارتفاع اللِّسان في الفم، وباختلاف المنطقة التي يتم فيها هذا الارتفاع داخل الفم في مقدمه أو في وسطه أو في آخره". مع أنَّ صاحب هذا النّص لم يذكر هذه الحركات"[15]".

تُعدُّ الضمَّة حركة معياريَّة أساسيَّة، وتُسمَّى بالحركة الخلفيَّة المغلقة المدوَّرة، وعند نطق هذه الحركة يرتفع اللِّسان إلى أقصى درجة في الخلف، ومن أمثلتها بعض صيغ الضمَّة العربيَّة، وواو المد، وذلك كالواو في (سيروا)"[16]" ويشير هذا المفهوم، إلى ارتفاع اللِّسان للخلف، ويصف صاحبه الضمَّة بالانغلاق والتَّدوير؛ نسبة إلى انغلاق مجرى التَّجاويف، وملتقاها المتمثِّل في اللَّهاة، كونها أقصى عضو يصله اللِّسان. ومن الدَّارسين من يخلط بين مفهومي الضمَّة القصيرة، والطَّويلة ويجعلهما تحت مفهوم واحد هو الرَّفع حين يقول: (ضمَّة وواو المد، يكون آخر اللِّسان هو الجزء الأعلى مع أخذ الشَّفتين شكل الاستدارة تقريبا)"[17]" والمفروض أن يقول: (الرَّفع يكون آخر اللِّسان، والضمَّة أخذ الشَّفتين شكل الاستدارة تقريبا).

اتَّصفت الضمَّة بأنهَّا صوت طليق خلفي، وقيل فيها هي: (صوت طليق خلفيّ منضمّ حادّ قصير غير أغنّ، يصيبها من القصر في الرَّوم ما يصيب كل الطَّليقات القصار. ولا تنفرج بتأثير أصوات الاستعلاء كما يحدث للكسرة)"[18]" وأضاف هذا النَّص، إلى الضمَّة صفة الطَّلاقة والحدَّة، وعدم التأثُّر بأصوات الاستعلاء وعدم غنَّتها، وما يصيبها عند ترويمها"[19]" باعتبار أنَّ الرَّوم يكون في الصَّوئت الثَّلاثة الفتحة والضمَّة والكسرة.

إنَّ تسمية الصَّوائت القصيرة الثَّلاثة، من ضمَّة وفتحة ثم كسرة، كان نسبة إلى حركة الشَّفتين أثناء النُّطق؛ وتسمية الضمَّة من انضمام الشَّفتين واستدارتهما دون التقاء؛ أمَّا علامات الإعراب المقابلة لها، فأَخذت تسميتها من وضعيات اللِّسان، لذلك كانت علامات البناء أصلاً وأساسًا لوضع علامات الإعراب"[20]".

والملاحظ من التّعاريف السّابقة لصائت الضمّة، أنّ أصحابها خلطوا بينها وبين الرّفع، حينما قالوا إنّ الضمّة صائت خلفي ناتج عن ارتفاع مؤخّر اللّسان؛ ولكنّ الضمّة في حقيقتها ناتجة عن انضمام الشّفتين إلى بعضهما في غير التقاء على ما أوضحناه من قبل؛ أما الرّفع، فهو النّاتج عن ارتفاع الجزء الأعلى من مؤخّر اللّسان، مما يجعل الضمّة خلفيّة، منغلقة، مضمومة"[21]" والملاحظ من هذا النّص أنّ صاحبه لا يصف الضمّة، وإنّما يصف وضعيّات أعضاء من الجهاز النّطقيّ عند النّطق بالصّوت المضموم، وهذا ما جعلنا نتحفّظ على كثير من الآراء المتحدّثة عن الصّوائت العربيّة أو الواصفة لها؛ وسنحاول جهدنا توضيح المتداخل وتبيين الغامض من حديث الصّوائت في ما هو آتٍ.

في علّة التّسمية

الرّفع من المصطلحات الإعرابيّة، والمرفوعات يوحي اسمها بمعناها، ومن معاني الرّفع، الإسناد والعلوّ والاستعلاء؛ أي وجود مسند ومسند إليه في التّركيب، واللّغويون قالوا: (الضمّ علم الإسناد، والكسر علم الإضافة، والفتح ما ليس بإسناد ولا إضافة)"[22]" ومن معاني الرّفع الرّفعة وعلو المكانة؛ لأنّ المرفوعات تدلّ على كلّ من قام بالعمل، أو تحمّل مسؤوليته واتّصف به لرِفعته ومكانته.

ونتصوّر للرّفع مقابلاً بالضّد، وهو موجود يُسمّى الخفض؛ وجاء في مقاييس اللّغة أنّ: (الرّاء، والفاء، والعين أصل واحد يدلّ على خلاف الوضع، يقول رفعت الشّيء رفعا، وهو خلاف الخفض...والرّفع إذاعة الشّيء وإظهاره)"[23]" وعلامة الرّفع هي الضمّة بفتح الضّاد، وأطلقنا عليها مصطلح الرّفعة. وتُسمّى الضمّة الصّائت القصير كذلك نظرا لكميّتها الصّوتيّة، ويقابلها الصّائت الطّويل وهو الواو؛ وبينهما اختلاف أساسيّ وأوليّ من حيث الكمّية الصّوتيّة، مع تشابههما في صفات أخرى نطقيّة، يأتي حديثها في موضعها.

مكانة الرّفع اللغويّة والاجتماعيّة

إنّ المركّبات أنواع، منها المرفوعة والمنصوبة والمجرورة، وتُعدُّ التّراكيب المرفوعة أساس التّنويع؛ لأنّ الرّفع يحدث من غير عامل صوتيّ ظاهر، خلافًا لغيره فقد فرّقت العرب بين العُمَد والفضلات، فجعلت الرّفع للعمد، والنّصب

للفضلات"[24]" وهناك من يرى أنَّ الحركات الإعرابيَّة هي دوال على المعاني الإعرابيَّة، كما جاء في قول السيوطي: (إنَّ الأسماء لما كانت تعتورها المعاني، وتكون فاعلة ومفعولة ومضافة، ولم يكن في صورها وأبنيتها أدلَّة على المعاني، جعلت حركات الإعراب تبين هذه المعاني وتدل عليها؛ ليتَّسع لهم في اللّغة ما يريدون من تقديم وتأخير عند الحاجة)"[25]" والمقصود من ذلك، أنَّ الضمَّة والكسرة والفتحة، هي التي تحدِّد عناصر التَّركيب، والمعاني المرادة منها.

وفي مقابل الرَّأي القائل بدلالة الصَّوائت على المعاني الإعرابيَّة، هناك من يرى أنَّ الحركات الإعرابيَّة لا دلالة فيها، ولا منها وذهب إلى ذلك بعض القدماء"[26]" وسار على هذا الرَّأي بعض المحدثين ممَّن يرى الحركات الإعرابيَّة ليس لها مدلول، وأنَّ الحركات لم تكن تحدد المعاني في أذهان العرب الأقدمين، وهي لا تعدو أن تكون حركات يحتاج إليها في كثير من الأحيان لوصل الكلمات ببعضها"[27]" وتوجد آراء أخرى إضافة إلى ما ذكره السيوطي في الدَّور الدَّلالي للرَّفع كعلامة إعرابيَّة، سنوردها فيما يلي.

وذهب الدَّارسون في تحديد وظيفة الصَّوائت العربيَّة بقولهم: (وقد اعتدت العربية بالضمة والكسرة اعتدادا خاصا، فجعلت الضمة علما للإسناد)"[28]" وجعلت الكسرة للإضافة والفتح للحياد. وإذا ربطنا ذلك بحالات المجتمع المختلفة، وباعتبار اللغة ظاهرة اجتماعيَّة، شبيهة بالأسرة في عناصرها، ظهر أنَّ الرَّفع يمثّله في الأسرة المسؤول عنها، وهو الأب لرِفعته، وقدرته على تحمُّل المسؤوليَّة العائليَّة، والكسرة لغيره ممَّن يتحرَّك في فلكه وتناسب المرأة.

ويتمثَّل البعد النَّفَسِي للرَّفعة، في أنَّ أكبر كمية من النَّفَس تكون معها، وذلك لأنَّ اللِّسان يتراجع عند النطق بها للوراء، والفكّ الأسفل يتباعد عن الأعلى، وتمتد الشَّفتان للأمام، وتنضمَّان مستديرتين غير ملتقيتين، فيتَّسع التَّجويف الفمويّ، وتتجمَّع فيه أكبر كمية من الهواء.

إنَّ هذه الوضعيات والكيفيّات جميعها التي يكون عليها الجهاز النّطقيّ بكلِّ ما فيه؛ من أعضاء ومواقع وتجاويف عند النّطق بالضمَّة، وما يرافقها حال النّطق بالصَّامت المصاحبة له، لما يوحي بمكانتها في أسرتها الصَّوتيَّة اللغويَّة، والإنسانيَّة الاجتماعيَّة. ويكمن البعد الاجتماعيّ للرَّفعة، في نطقها الموحي بالتَّرفع والخشونة والغلظة والاستعلاء، وذلك يوافق الطَّبع البدويّ

والعربيّ في بداوته، كونه يحب الرِّفعة وعلوّ المكانة. والرَّفع دليل ذلك؛ لأنَّ المسند إليه يكون مرفوعًا في مثل: (جاء محمَّدٌ) و(محمَّدٌ جاء) والمسند إليه (محمدٌ) جاء في التَّركيبين السَّابقين مرفوعًا؛ والمسند إليه لا يجرّ ولا ينصب، وكأنَّ العربي ليس مستعدًّا لأن يُجرَّ أو يتبع غيره لأنَّ الجرَّ يعني السُّفول والتَّبعيَّة، ويعني هذا في الخلفيّة الأنثروبولوجيَّة الإزالة من الوجود.

الكمّية الصَّوتيَّة للضمَّة

ترتبط الحركة بالزَّمن ارتباطا وظيفيًّا، يؤدِّي إلى تحديد طولها، وما دام طول الحركة مرتبطا بالزَّمن؛ فإنَّه يمكن تعريف طول الحركة بأنَّه المدَّة الزَّمنيَّة التي يستمرّ فيها شكل الفراغات العليا (فراغات فوق الحنجرة) ثابتا على حاله عند النّطق بالحركة؛ ذلك أنَّ أعضاء النّطق تبقى ثابتة على وضع معيَّن أثناء العمليَّة لكلاميَّة مدَّة من الزَّمن"[29]" وفي هذه المدَّة الزَّمنيَّة تتكوَّن الكميَّة الصَّوتيَّة التي تميِّز صائتا عن آخر، والضمَّة من حيث كميتُها الصَّوتيَّة صائت مفخَّم وخشن، ممَّا جعل القبائل البدويَّة تميل إليها، كما مالت الحضر إلى الكسرة لرقَّتها ونعومتها[30]" واتِّساع بيئة العربي، البدويّة في أصلها، هي التي جعل الصَّائت الأكثر اتِّساعا هو الغالب في كلامه، وهذا ما يُسمَّى بالأداء الواسع. ويمتاز الأداء الواسع للضمَّة، باهتزاز كبير للوترين الصَّوتيين، وعلوّ الصَّوت، مثل: الخطابة، والتَّدريس لأعداد كبيرة من الطَّلبة، والصّياح الغاضب"[31]" وإلى جانب الأداء الواسع الذي يناسب صائت الرَّفعة، هناك الأداء المتوسِّط للفتحة، والأداء الضيِّق للكسرة، ونشير إلى ضرورة التَّفريق بين الخشونة والقوّة؛ فليس كلُّ خشن قويَ والعكس.

إنَّ الصَّوت اللّغويّ عبارة عن كمّيات صوتيَّة؛ وأساس الكمّيات الصَّوتيَّة الصَّوائت القصيرة التي هي (أبعاض الحروف)"[32]" على ما وصفها به القدماء والضمَّة منها. وهي علامة الرَّفع إلى جانب الواو في الوظيفة، وتسمَّى الضمَّة صائتًا قصيرًا، والواو صائتًا طويلاً، وهي من حيث موقعيتها الصَّوتيَّة تُعتَبر صائتًا مرتفعًا، مستعليًا، مُفخَّمًا، ومُتَّسعا؛ ومن هذه النّظرة إلى موقع الضمّة، نرى لها أثرا قويّا ومباشرا في توجيه المباني اللّغويَّة، في مختلف الموقعيّات منها، وبين صائتي الضمَّة والواو، تفاوت في الكمية الصَّوتيَّة؛ رغم تشابههما في الصِّفات.

والتَّشابه في الصِّفات بين صائت الضمَّة القصير والطَّويل، يتمثَّل في كون الضمَّة القصيرة، صائت عال خلفي مدوَّر مجهور، والطَّويلة مثلها،

وكلاهما فونيم ثابت لا يتغيَّر من لهجة إلى أخرى"[33]" ويُحدَّد طول كمية الصَّائت، من خلال الوقت الذي يستمر فيه الصَّوت بعد نطقه، وفي بعض اللغات إذا زاد طول الصَّوت أصبح صوتًا آخر، ومثال ذلك ما يحدث في اللّغة العربيَّة مع الصَّوائت؛ فإذا طالت الفتحة القصيرة صارت فتحةً طويلةً، وإذا طالت الكسرة القصيرة صارت كسرة طويلة، وإذا طالت الضمَّة القصيرة صارت طويلة، ويصبح الطول هنا وظيفيًّا؛ لأنَّه أدَّى إلى تغيير الصَّوت تغييرا شاملاً"[34]". ونستطيع القول، إنَّ الخليل بن أحمد الفراهيدي، كان مُدركًا للفرق والعلاقة بين الحركات القصار والحركات الطّوال، وأدرك أنّهاَ علاقة في الكم (*DURATION*) وليست علاقة في الكيف"[35]" وتوصَّل المحدثون إلى إدراك بعض هذه الفروق الكمية بين الصَّوائت القصيرة والطَّويلة؛ حيث سجَّلوا على جهاز(*Spectrograph*) أنَّ الفترة الزَّمنيَّة لإنتاج الحركة القصيرة تساوي *300* دورة/الثَّانية؛ بينما تصل إلى *600* دورة/الثَّانية مع الحركات الطَّويلة ومنها الألف والواو والياء المدِّيتين"[36]" ونحن إذ نقدِّم هذه المقادير ونعتبرها جهودا حميدة في المجال الصَّوتي، فإنَّنا نتحفَّظ عليها لقيامها على تجارب غير عربيَّة.

التَّلوينات الصَّوتيَّة للرَّفع

إنَّ موضوعات التَّلوينات الصَّوتيَّة الوظيفيَّة في العربيَّة كثيرة، منها: الإمالة والقلب والإعلال وتخفيف الهمز والتَّماثل والتَّجانس والانسجام الصَّوتي والخفَّة والثّقل، ووالتَّرخيم والتَّصغير والتَّحقير، وغيرها من الموضوعات، منها ما يصيب الصَّوامت، ومنها ما يكون في الصَّوائت، وما يهمنا هنا، هو حديث التَّلوينات الصَّوتيَّة التي تصيب صوائت العربيَّة الثَّلاثة بعامَّة، والرَّفع بخاصَّة.

تلحق الصَّوائت الثَّلاثة تغييرات صوتيَّة، وتلوينات نطقيَّة، مع أنَّ تلوينات الصَّوائت أقل درجة مقارنةً بتلوينات الصَّوامت، وقد تشترك الصَّوائت في تلوين صوتي معيَّن، أو يختصّ كلّ صائت بتلوين ما، كالإمالة التي تكون من الألف نحو الياء، ومن الفتحة باتِّجاه الكسرة؛ ولا تكون الإمالة في غير الفتحة أو الألف؛ لأنَّ الإمالة هي أن تنحو بالفتحة نحو الكسرة، وبالألف نحو الياء"[37]".

كما يكون الرَّوم في الصَّوائت الثَّلاثة؛ لقول ابن جنِّي: (لكن روم الحركة يكاد يكون متحرّكا به، ألاَ تراك تفصل بين المذكَّر والمؤنَّث في قولك في الوقف أنت وأنت فلولا أنَّ هناك صوتا لما وجدت فصلا)"[38]" والفصل بين

التّاءين في ضمير الرَّفع المنفصل أنت، لا يكون إلاَّ من خلال ترويم الحركة نحو الكسرة للدَّلالة على المخاطب المؤنَّث، أو ترويمها نحو الفتحة للدَّلالة على المذكَّر المخاطب؛ ومثال الرَّوم في الرَّفع: (كتبت، وكتبت) لا يمكن الفصل بين المفرد المتكلِّم، أو المفرد المخاطب مذكّرا أو مؤنَّثًا أو المفردة المؤنَّثة الغائبة، إلاَّ بترويم النّطق نحو الحركة المناسبة.

وإضافة إلى الرَّوم يختصّ الإشمام بالمضمومات؛ لأنَّ مفهوم الإشمام اصطلاحا يدلُّ على إطباق الشَّفتين بعد الحرف الأخير من الكلمة الذي نقف عنده بالسكون، إشارة إلى الضمَّة التي ختم بها النّطق، مع أنَّ الإشمام يرى ولا يسمع"[39]" ولا يكون الإشمام إلاَّ في المرفوع أو المضموم، ولا يجوز في النَّصب والجر، لعدم موافقتهما لنطق الضم، والإشمام بذلك هو إشارة بصريَّة من خلال ضمِّ الشَّفتين، حين الوقوف على ساكن الآخر، وهو في أصله مرفوع.

وننتهي إلى القول، بأنَّ وظيفة الرَّفع واحدة عند القدماء والمحدثين اللّغويّين، والفرق بينهما يكمن في الموقعيَّة؛ لأنَّ اللّغويّين القدماء يُقصِرون الرَّفع على أواخر التَّراكيب والصِّيغ؛ أمَّا الرَّفع عند المحدثين فيكون في موقعيَّة البداية أو الوسط أو النِّهاية، أي الرَّفع مُعمَّم عندهم على جميع الموقعيّات، لا على موقعيَّة النِّهاية فقط. وكما تعرف صوامت العربيَّة تلوينات صوتيَّة؛ فإنَّ الصَّوائت كذلك تتلوَّن، ويختلف نطق الصَّائت بحسب السِّياق الوارد فيه، والوظيفة التي يؤدِّيها.

هوامش:

[1] - عزيزة فوال بايتي، المعجم المفصّل في النّحو العربيّ، دار الكتب العلميّة، بيروت لبنان، ط1، 1413هج/1994، ج1، ص460. وتسمَّى المصوِّتات، ينظر، الفارابي، كتاب الموسيقى الكبير، تح، وشر، غطاس عبد الملك خشبة، مراجعة وتصدير، محمود أحمد الحفني، دار الكاتب العربيّ للطّباعة والنّشر، القاهرة. ص1072، وينظر، ديزيرة سقال، الصَّرف وعلم الأصوات، ص16.

[2] - مصطفى حركات، اللّسانيّات العامّة وقضايا العربيّة، المكتبة العصريّة، صيدا بيروت، ط1، 1418 هج/1998م، ص22.

[3] - أبو الفتح عثمان بن جني، سرّ صناعة الإعراب، تح، مصطفى السقا وزملائه، مط، مصطفى البابي الحلبي، ط1، 1954، ج1، ص 147.

[4] - أحمد ابن فارس، مقاييس اللغة، تح، عبد السّلام محمّد هارون، مط، دار الفكر، بيروت، ج3، ص357.

[5] - جمال الدّين بن منظور، لسان العرب، مط، دار صادر بيروت، ج1، ص357.
6 - أبو عمر عثمان بن سعيد الدّاني، المحكم في نقط المصاحف، تح، عزة حسن، مط، دمشق، 1960، وفي رواية إذا ضممت فمي، ص6.
[7] - ينظر تفصيل هذا عند، جوزيف إلياس، وجرجس ناصف، معجم عين الفعل، ص170. مط، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط1، 1995م.
8 - ابن منظور، لسان العرب، ج8، ص129، باختصار.
9 - نفسه، ج8، ص13.
[10] - مهدي المخزومي، مدرسة الكوفة ومنهجها في دراسة اللّغة والنّحو، ص304، مط، الحلبي وأولاده، ط2، 1958م.
11 - ينظر تفصيل ذلك عند، عوض حمد القوزي، المصطلح النّحويّ نشأته وتطوّره حتى أواخر القرن الثّالث الهجريّ، ص89، وما بعدها. بتصرّف، ديوان المطبوعات الجامعيّة، الجزائر، ط1، 1401هج/ 1971م.
12 - سيبويه، الكتاب، تح، عبد السّلام محمد هارون، مط، عالم الكتب، بيروت، ط1، 1966م، ج1، ص13.
13 - بسام بركة، علم الأصوات العامّ، أصوات اللّغة العربيّة، ص132، مط، مركز الإنماء القوميّ، بيروت، لبنان، 988 م. وينظر، عبد التواب رمضان، المدخل إلى علم اللّغة ومناهج البحث اللّغوي، ص94، مكتبة الخانجي القاهرة ودار الرّفاعي بالرّياض، ط1، 1982 م. وعبد القادر مرعي العلي الخليل، المصطلح الصوتي عند علماء العربية القدماء في ضوء علم اللغة المعاصر، ص100، جامعة مؤتة، ط1، 1993م. وعبد القادر عبد الجليل، الأصوات اللّغويّة، دار صفاء للنّشر والتّوزيع، الأردن، ط1، 1998م، ص108.
14 - خليل إبراهيم الحمّاش، دراسة مقارنة للنّواحي الصّوتيّة في كتاب العين والنّظريّة الحديثة في علم الصّوت، ص507، بتصرّف، مقال بمجلة كلّية الآداب، العدد16، مط، المعارف، بغداد، 1973م. وينظر تفصيل ذلك، جان كانتينو، دروس في علم أصوات العربيّة، ص 143، وما بعدها، نقله إلى العربيّة، وذيّله بمعجم صوتي فرنسي عربي، صالح القرمادي، الجامعة التّونسيّة، مركز الدّراسات والبحوث الاقتصاديّة والاجتماعيّة، ط 1966م.
[15] - محمود فهمي حجازي، مدخل إلى علم اللّغة، طبعة جديدة مزيدة ومنقّحة، دار قباء للطّباعة والنّشر والتّوزيع، القاهرة، 1998م، ص40.

16 - سمير شريف إستيتية، الأصوات اللّغويّة، رؤية عضويّة ونطقيّة وفيزيائيّة، ص219، مط، وائل للنّشر والتّوزيع، عمّان، ط1، 2003 م.
17 - محمد محمد داود، المدخل إلى علم اللّغة، دار غريب للطّباعة والنّشر، ص111.
18 - محمود الأنطاكي، الوجيز في فقه اللّغة، منشورات دار الشّرق، ط1، 1969م، ص239.

[19] - ينظر، مكي درار، المجمل في المباحث الصَّوتيَّة من الآثار العربية، دار الأديب، السانية، ط1، 2005م، ص100، وما بعدها.

20 - ينظر تفصيل ذلك عند، عبده الراجحي، النّحو العربيّ والدّرس الحديث بحث في المنهج، دار النّهضة العربيّة للطّباعة والنّشر، بيروت، 1979 م، ص55.

[21] - مصطفى حركات، اللّسانيات العامّة وقضايا العربيّة، المكتبة العصريّة، صيدا، بيروت، ط1، 1418 هج/1998م، ص22، بتصرّف.

22 - مهدي المخزومي، مدرسة الكوفة ومنهجها في دراسة اللّغة والنَّحو، مط، الحلبي وأولاده، ط2، 1958م، ص67.

23 - أحمد بن فارس، مقاييس اللّغة، ج 2، ص 423.

24 - رشيد بلحبيب، قراءة أوليّة في بعض وظائف الإعراب الدّلاليّة والتّركيبيّة، مقال بمجلّة الفيصل، العدد 267، ديسمبر 1998 م/ يناير 1999 م، ص69، عن، ابن أبي الرّبيع، البسيط، ج1، ص541.

[25] - جلال الدّين السّيوطي، الأشباه والنّظائر في النّحو، راجعه وقدَّم له، فايز ترحيني، مط، دار الكتاب العربي، ط1، 1984م، ج1، ص78/76 .

[26] - قال بهذا الرّأي من القدماء، محمد بن المستنير المدعو قطرب، ينظر تفصيل هذا عند، أبي القاسم الزّجاجي، الإيضاح في علل النّحو، تح، مازن المبارك، مط، دار النّفائس، بيروت لبنان، ط4، 1982م، ص70.

27 - إبراهيم أنيس، أسرار اللّغة العربيّة، مكتبة الأنجلو المصريّة، ط2، 1962م، ص185.

[28] - مهدي المخزومي، في النّحو العربيّ نقد وتوجيه، منشورات المكتبة العصريّة، بيروت، ط1، 1964م، ص67.

[29] - ينظر، سمير شريف إستيتية، الأصوات اللّغويّة، رؤية عضويّة ونطقيّة وفيزيائيَّة، دار وائل للنّشر والتّوزيع، ط1، 1992م، ص241، بتصرّف، نقلا عن: *Peter maccarthykenglish pronunciation* .

30 - جلال الدّين السّيوطي، المزهر في علوم اللّغة، ج2، ص276/ 277. 156. وإن كان العامل الجغرافيّ، والبيئة يلعبان دورا في ذلك.

31 - كريم زكي حسام الدين، الدّلالة الصّوتيّة، مط، الأنجلو المصريّة، ط1، 1992م، ص42 بتصرّف.

[32] - أبو الفتح عثمان بن جني ، سرّ صناعة الإعراب.ج1، ص147. وينظر، عبد الفتاح إبراهيم، مدخل في الصّوتيات، ص120، دار الجنوب للنّشر، تونس.

[33] - ينظر، محمد علي الخولي، الأصوات اللّغويّة، دار الفلاح للنّشر والتّوزيع، ط1، 1990م، ص98، بتصرّف واختصار.

[34] - نفسه، ص45، بتصرف، واختصار.

[35] - ومن المحدثين الذّين أكّدوا ذلك (إبراهيم أنيس) بقوله: " ما يسمّى بألف المدّ هي في الحقيقة فتحة طويلة، وما يسمى بياء المدّ ليست إلاَّ كسرة طويلة، وكذلك واو المدّ تعدُّ من

النّاحية الصّوتيّة ضمّة طويلة ". إبراهيم أنيس، الأصوات اللّغويّة، ص 38. ط4، القاهرة، 1971م.

36 - عبد القادر عبد الجليل، هندسة المقاطع الصّوتيّة وموسيقى الشّعر العربيّ، ص 39، دار صفاء للطّباعة والنّشر والتّوزيع، الأردن، ط1، 1419 هج/1998 م.

37 - ابن الجزري، النَّشر في القراءات العشر، دار الكتب العلميّة، بيروت لبنان، ج1، ص 29. وينظر، عبد الفتاح شلبي، في الدّراسات القرآنيّة، الإمالة في القراءات واللّهجات، دار نهضة مصر للطّباعة والنّشر، ط2، 1971م.

38 - أبو الفتح عثمان بن جني، الخصائص، تح، محمد علي النّجار، دار الكتاب العربي، ج2، ص328.

39 - ينظر تفصيل ذلك عند، سيبويه، الكتاب، ج4، ص171.